الأنساق الثقافية في قصيدة "البرزخ والسكين" لعبد الله حمادي

Cultural Formats in the poem "The Isthmus and the Knife" by Abdullah Hammadi

مبارك بالنور^{1*}

¹ جامعة ابن خلدون- تيارت (الجزائر)، mebarek.bennour@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2024/03/30

تاريخ القبول: 2023/12/08

تاريخ الإرسال: 2023/06/03

ملخص:

تعد الثقافة بكل أنساقها مجال رمزي مشبع بالمعاني والأفكار والعقائد وأنماط العلاقات الاجتماعية التي تصوغ الهوية العامة لمجتمع من المجتمعات، ولهذا لا يمكن تقدير أهمية (النقد الثقافي) بدون الكشف عن محمولات النسق الثقافي. النسق الثقافي يتطلب منا أن نقرأ النصوص قراءة خاصة، من وجهة نظر النقد الثقافي، أي أنها حالة ثقافية، والنص هنا ليس فحسب نصاً أدبياً وجمالياً، ولكنه أيضاً حادثة ثقافية فإن الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظري للكشف والتأويل في عيوب الخطاب وعن سقطات في المتن، فالتأمل داخل الخطاب الشعري المغاربي يُدرك أنّ هناك العديد من الشعراء الذين تقنعوا بالجمالي عبر توجيه خطابهم المشفرة بالرموز والرسائل المذهبية والسياسية والاجتماعية والنفسية، ولعل (عبد الله حمادي) من أبرز الشعراء المعاصرين الذين تُخُنّت نصوصهم بالأبعاد الثقافية المختلفة؛ حيث تتوارى في خطابه جملة من المضممرات الثقافية التي تبحث دوماً عمَّن يُنقَبُ عنها ويقوم بفضحها وإخراجها للعلن، لذلك تمر أخطر الأنساق وأشدها تحكماً فينا عبر الحيلة الجمالية وكشف هذه الحيلة يتطلب منا إستراتيجية نقدية ثقافية.

الكلمات المفتاحية: ثقافة; أنساق; نقد; شعر; تأويل.

ABSTRACT :

Culture is a symbolic field saturated with social meanings and beliefs that shape the general identity of a society, so the importance of (cultural criticism) cannot be appreciated without revealing the Cultural Formats.

The cultural pattern requires us to read texts in particular, from the point of view of cultural criticism, i.e. it is a cultural situation, and the text here is not only a literary and aesthetic text, but also a cultural incident, the theme of which will be the theoretical origin of the interpretation of the defects of the discourse and the fall of the body, The mediators within the Maghreb poetic discourse realizes that there are many poets who are convinced of jamali by directing their speech encoded with messages of political, social and psychological, and perhaps (Abdullah Hammadi) is one of the most prominent contemporary poets whose texts are documented in cultural dimensions. In his speech, a number of cultural figures are always searching for a man who is being screened, brought out in public, so the most dangerous patterns pass us through the aesthetic trick and to uncover this trick requires us to have a cultural critical strategy.

Keywords: culture ; formats ; criticism ; poetry ; hermeneutics .

1. مقدمة:

يعد النقد الثقافي من أحدث التوجهات النقدية والمعرفية التي عرفها المغرب العربي، حيث يبحث هذا النشاط النقدي عن الثقافي داخل الأدبي، وقد ظهر ذلك جلياً إثر الدعوة إلى نقد جديد يتجاوز خطاب النقد الأدبي وعلى رأسها الجمالية إلى نقد ثقافي يهتم بالأنساق الثقافية المضمرة خلف البناء اللغوي للقصيدة الغامضة، ولطالما عوَدْنَا النقد الأدبي على بذل الجهد لاكتشاف جماليات القصيدة والتي تمثل أرقى درجات الإبداع العقلي بحثاً على المتعة الذوقية والتي بدورها تنقل القارئ إلى عالم جميل مثالي، وعليه وجب على النقاد اليوم ممارسة العملية العكسية وتمثل في البحث عن القبيح واكتشافه، وكان هذا القبيح هاجس المفكرين لأنه نسق ذو جذور، يؤثر ويتأثر ويتغير حجمه وصورته وشكله في كل مرة حسب الظروف، ويكمن سبب استمراره في اختفائه خلف الجميل دائماً.

(عبد الله حمادي) شاعر جزائري عرفت المكتبة الشعرية نصوصه الكثيرة والمتميزة حيث ارتمت تجربته أمام عتبة النص الصوفي وفي ساحته، وقد استطاع الاتكاء على مرجعيات ثقافية وشعرية على الخصوص واجتماعية وسياسية على العموم من إضفاء ظلاله على النص الشعري، ويبدو من العسير الكشف عن المضمرة النسقية في غياب رؤية شاملة لمرجعياته الثقافية، ولا مانع من الغوص في قصيدته "البرزخ والسكين" الموصوفة بالعمق وما تحمله من أبعاد وخصوصيات.

2. مفهوم النقد الثقافي

إنّ "النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوي العام، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغته، ما هو غير رسمي وغير مؤسّساتي وما هو كذلك سواء بسواء من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي"¹ أي أن النقد الثقافي لا يقتصر على دراسة ما هو مؤسّساتي وجماهيري فقط بل يتعدى ويمتد إلى دراسة أوسع في ما هو هامشي وجديد، "بكشف لا جمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/ الجمالي"² من خلال هذه السمات يجب أن يكون للنقد الثقافي مجالاً واسعاً وساحة أكبر من الحرية والنشاط والاكتشاف لموضوع النشاط الإنسان كونه ليس محدوداً بالنص الأدبي بل يمتد إلى خلق آليات جديدة للعمل النقدي، لذلك من "المطلوب هنا إيجاد نظريات في (القبحيات) لا بمعنى البحث عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه.

المقصود بنظرية القبحيات هو "كشف حركة الأنساق وفعالها المضاد للوعي وللحس النقدي، فهو-إذن- نوع من (علم العلل) كما عند أهل مصطلح الحديث، وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب ويكشف عن سقطات في المتن أو في السند، ممّا يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة وصارمة ولا شك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجاً قادراً على تشریح النصوص واستخراج الأنساق المضمرة ورصد حركتها"³، يبحث النقد الثقافي إذن على كشف ما هو تحت الجمالي من خلال الأنساق المضمرة، أي إيجاد القبيح الذي يتقنّع بالجميل.

يقوم المنظور الاجتماعي بتزويدنا بعدد من الأدوات لتحليل النصوص، ويدعم المنظور الاجتماعي لأن "النقد الثقافي ضرورة لكل اجتماع بشري، وسبيل إلى تجديد الحياة الاجتماعية وتطوير نُظْمَهَا وَبَثُّ الروح في جميع أوصال المجتمع مما يحوله إلى كتلة من النشاط والحيوية في سبيل أهداف التجديد المجتمعي والتطوير الثقافي"⁴.

الدراسات النقدية الثقافية: "ليست مجرد دراسة للثقافة، فالهدف الرئيسي لها فهم الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة وتحليل السياق الاجتماعي والسياسي في إطار ما هو جليّ في حدّ ذاته"⁵، إذن الحقل النقدي الثقافي يتميز بالاتساع لارتباطه بالثقافة التي تعني: "ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأية قدرات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع"⁶ وذلك في: "كون الثقافة تعبير عن الناس، وفي الوقت ذاته هي أداة للهيمنة، فهو تداخل أساسي، له قمة مركزة في الدراسات الثقافية"⁷ وأنّ القيم الثقافية نفسها إنما تكون أكثر فهما وأشدّ تأثيراً من خلال العلاقة بفكرة الطبيعة الاجتماعية للحياة الإنسانية، لذلك "هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على دراسة كل ما تفرزه الثقافة من نصوص سواء أكانت مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولاً أو فعلاً تولّد معنى أو دلالة"⁸.

يلعب النقد دوراً فعالاً في كشف التناقضات الكامنة في صُلب الثقافة المتمركزة حول ذاتها وهو الذي يدفع بها إلى أن تفصح عن مضمراتها لأنه يتتبع بدقة الممارسات الملتوية للمفاهيم التي تكونها، ولا تقف مهمة النقد عند إظهار أخطار التمركز، إنما يبرئ الأمر لهوية ثقافة جديدة قائمة على مسار متحول ومتجدد ومُتَشَعَّب الموارد من المنظورات والمكونات الثقافية المنتجة أو المُعاد إنتاجها في ضوء الشروط التاريخية للذات الثقافية، لذلك تحتاج الثقافة إلى النقد بجوارها دائماً لأن النقد هو الذي يكشف لها عن التناقضات والمضمرات.

3. مفهوم النسق الثقافي

النسق الثقافي "يقضي إجرائياً أن نقرأ النصوص والأنساق التي تلك صفتها قراءة خاصة، قراءة من وجهة نظر النقد الثقافي، أي أنها حالة ثقافية، والنص هنا ليس فحسب نصاً أدبياً وجمالياً، ولكنه أيضاً حادثة ثقافية فإن الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظري للكشف والتأويل، مع التسليم بوجود الدلالات الأخرى الصريح منها والضمني، والتسليم بالقيمة الفنية وغيرها من القيم النصوية التي تُلغِيها الدلالة النسقية وليست بديلاً عنها، بل إننا نقول إن هذه الدلالات وما يتلبسها من قيم جمالية تلعب أدواراً خطيرة من حيث هي أقنعة تختبئ من تحتها الأنساق وتتوسل بها لعمل عملها الترويض، الذي ينتظر من هذا النقد أن يكشفه"⁹ لذلك نجد مجموعة من أخطر الأنساق المضمرّة تسير عبر الحيلة الجمالية ولتكشفها نحتاج إلى إستراتيجية نقدية ثقافية.

إنّ "الأنساق الثقافية هي أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائماً، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق، وكلما رأينا منتوجاً ثقافياً أو نصاً يَحْضَى بقبول جماهيري عريض وسريع فنحن في لحظة من لحظات الفعل النسقي المضمّر الذي لا بد من كشفه والتحرك نحو البحث عنه فالاستجابة السريعة والواسعة تنبئ عن محرك مضمّر يشبك الأطراف ويؤسس للحبكة النسقية، وقد يكون ذلك في الأغاني وفي الأزياء أو الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنكت، كل هذه وسائل وحيل بلاغية/جمالية تعتمد المجاز والتورية وينطوي تحتها نسق ثقافي ثاوٍ في المضمّر"¹⁰.

التورية الثقافية تُعبّر عن حُدُوث ازدواج دلالي أحد طرفيه مضمّر، ويعبر عن نسق كلي ينتظم مجموعة من الخطابات والسلوكيات، لذلك: "الثقافات مؤلف مضمّر ذو طبيعة نسقية تُلقَى بشباكها غير المنظورة حول الكاتب، فيَقَعُ في أسْرٍ مفاهيمها الكبرى التي تتسرب إليه كالمخدر البطيء، فَتُرْتَبُ محمولات خطابية بما يوافق المضامين الإيديولوجية الخاصة بها، إننا بإزاء مؤلف مزدوج التكوين، تكوين شخصي وآخر ثقافي، والثاني لا يدّخر وسعاً في تَشْكِيل وإعادة تشكيل الأول"¹¹ إذن العلاقة مترابطة بين المؤلف الشخصي والمؤلف الثقافي بل تصل إلى حد أنّ الثاني هو الذي يشكل الأول ويُعيد تشكيله كلما دَعَت الضرورة.

الثقافة بكل أنساقها "مجال رمزي مشبع بالمعاني والأفكار والعقائد وأنماط العلاقات الاجتماعية والتطلعات، وكل المؤثرات الفاعلة التي تصوغ الهوية العامة لمجتمع من المجتمعات، ولهذا لا يمكن تقدير أهمية (النقد الثقافي) بدون أن نكشف عن محمولات النسق الثقافي السائد، وهي محمولات كثيرة ومتنوعة ومركبة من عناصر إيجابية وسلبية، تعبّر عن نفسها بشكل أحكام ورغبات مدارها الذم والتبخيس والإكراه أو الاحتفاء والتمجيد"¹² وأن يكون النص جماهيرياً ويحظى بِمَقْرُوءِيَّةٍ عريضة، وذلك لكي نرى ما للأنساق من فعل عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي؛ "أما وظيفة ذلك النقد فهي الانتقال بالممارسة النقدية من نقد النصوص والعناية بجمالياتها الأسلوبية والبنائية إلى نقد الأنساق المطمورة فيها، أي نقد محمولاتها الثقافية، وكشف مصادراتها المتخفية فيها، وهذا النقد يَنْصَرَفُ إلى متابعة عملية الاستهلاك الثقافي، أي كيفية تلقي الثقافة، ومتابعة حيلها ومؤارباتها"¹³ وهنا يلعب النسق المضمّر دوراً واسعاً في كشف الممارسة النقدية ومتابعة عملية الاستهلاك الثقافي، ولا يمكن معرفة أهمية النقد الثقافي من دون أن نكشف عن المؤثرات والمصادر المخفية والمتنوعة والمعقدة في النسق الثقافي سواء كانت إيجابية أم سلبية.

4. الأنساق المضمرة في قصيدة "البرزخ والسكين"

1.4 المأزق الوجودي:

يبحث (عبد الله حمادي) عن الحياة عبر إخفاء المقصود الديني للوجود في قوله:

"كان البدء

وكان السابق... وكانت شجرة؟"¹⁴.

إنّ ذاكرة البدء هي سر الوجود التي نرى فيها رؤوس البشرية منهم من يولد ومنهم من يموت فالحياة كالقميص مرة يخلع وأخرى يلبس، فتاريخ البشرية كالدّم الذي هو مجرى الحياة التي نراها ونتخيلها صوراً وشاشات من خلق سيدنا آدم إلى يوم البعث، من هنا نخرج على معرفة مفهوم الوجود هو "فقدان العبد بمُحاق أوصاف البشرية ووجود الحقّ؛ لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة، وهذا معنى قول أبي الحسن الثوري: أن منذ عشرين سنة بين الوجود والفقْد إذا وجدت ربّي فقدت قلبي، هذا معنى قول الجنيد: علم التوحيد مُباين لعلمه، فالتوحيد بداية، والوجود نهاية، والوجد واسطة بينهما"¹⁵ من خلال هذا الفكر النسقي المضمّر تأتي حتمية الحيرة لدى الشاعر عن الوجود فيقول:

"الطين والماء

كانت بدايتها،

كانت نهايتها.

من حما مسنون"¹⁶.

نرى أسطر شعرية تخفي وراءها نسق سر بداية الخلق، يقول الله تعالى: "[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ]"¹⁷ "أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك، أي: قوما يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فكان تأويل الآية على هذا: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً] مني، يخلفني في الحكم بين خلقي وإنّ ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقه فمن غير خلفائه"¹⁸ "والله لا يغير من عبده إلّا إذا طلب العبد أن يتغير وأسلم نفسه وذاته راضياً مختاراً محباً وهذا هو الموت قبل الموت أو الفناء بين يدي الرب"¹⁹.

إذن الفكر الوجودي المضمّر لإرضاء شهوات نفسه المعرفية دون اختيار طلب رضا الخالق وهذا "عائق أمام المعرفة، لأنّ فرديتها حاجز يفصل بين العارف والمعروف، فلا يُدرِك الوجود حقاً إلّا بتجاوز هذه الأنا، حيث يزول الوعي بها، زوال هذا الوعي هو ما تسميه الصوفية (بالفناء)"²⁰، فالشيء المخفي وراء نسق الوجود هو عدم التصريح بالانتماء إلى وجود الإنسان الحقيقي في هذه الحياة وهو إرضاء الله قبل الموت، ولذلك نجد أن اللامنتهي "يميل إلى التعبير عن نفسه بمصطلحات وجودية، ولا يهيمه التمييز بين الروح والجسد، أو الإنسان والطبيعة، ذلك أنّ مثل هذه الأفكار تنتج تفكيراً دينياً وفلسفة في حين أنه يرفضها معاً، إنّ التمييز الوحيد الذي يهيمه هو بين الوجود والعدم"²¹ حيث يرى الشاعر نفسه على منحنى لانتهائي "حيث نبلغ هنا حالة من الوجد تصلنا بجوهر الكون، متجاوزين كل الحجب وكل العوائق المادية، ويغدو المرء في تلك البرهة واحداً مع الله، وهو ما يمكن تسميته بالإنّحاد، أو وحدة الوجود"²².

ابتكر الشاعر مفهومًا جديدًا يرمي إلى تجاوز كل المفاهيم الدينية؛ التي يدعوا من خلالها إلى إعادة ترتيب القيم الجديدة للوجود عبر تراكمات نفسية وتاريخية.

2.4 نرجسية الذات:

تكاد تجمع مؤلفات علم النفس على أن النرجسية هي حُب المرء لذاته حُبًا مُفرطًا وهي حالة مرضية متعددة الأسباب، وتعود كلمة النرجسية إلى المصطلح الغربي (Narcissisme) وهو "اسم أحد الأشخاص (نرجس Narcisses)، وكما تروي الأسطورة الإغريقية القديمة كان هذا الشخص يتميز بمظهر جميل، وفي أحد الأيام شاهد أثناء تجواله في الريف صورته المنعكسة على بحيرة هادئة في أحد الغابات، ووقع بجنون في حب نفسه المتمثلة في صورته، ومُلئ باليأس لأنه لم يستطع الوصول إلى المحبوب فقتل نفسه، ومن نقاط الدم القليلة التي سالت على الأرض بجوار الماء نمت زهرة عُرفت من ذلك الوقت حتى يومنا هذا بزهرة النرجس. إن مثل هذا الحب المتوهج والموجه للذات، نادرًا ما يوجد في التجربة الإنسانية، وعلى أية حال توجد درجات من حب الذات أو النرجسية شائعة لجميع الأجناس البشرية وهذه لا تختص بالجسد المادي، ولكن أيضا بفكرة المرء عن صورة جسمه لدى الآخرين وصورته عن ذاته ككائن اجتماعي"²³.

إن النرجسية الأولية هي "الحالة السعيدة حيث يشعر فيها الطفل أن ذاته هي مركز ومحور الإبداع والخلق والابتكار"²⁴ والنرجسية حالة طبيعية عند الطفل غير أنها إذا ما استمرت مع المرء في باقي أطوار حياته فإنها تغدو حينئذ حالة مرضية تستدعي العلاج النفسي، وهناك العديد من الأشخاص المصابين بالنرجسية غير أنهم يحاولون إخفاءها خوفا من رقابة الأنا الأعلى المتمثل في الدين والمجتمع والأعراف والعادات والتقاليد، ولعل الأدباء والفنانين عموما هم أقدر الناس على إخفاء نرجسياتهم؛ غير أن الناقد العبقرى لأعمالهم الأدبية يستطيع أن يتلمس خيوطها في طيات كلماته وملامح عباراته، وتلمس ذلك عبر هذه الأسطر الشعرية:

"تسألني السيف الذي أغمدته

منذ الطفولة في عينها،

... تسألني الوردة المخبوءة في اليقطين

وبريدا مغلقا"²⁵.

من خلال هذه الأسطر يتراءى لنا نسق الأنا المتخفي وراء التضييق المشدّد على الذات النرجسية عبر الاستنجاد بالسيف الذي يراه المُنْفَذُ لإرجاع الذكريات الجميلة عندها رأى نفسه يوزع تلك الذكريات على الورود التي يرى فيها نرجسيته.

الاختباء: يهئ له التمني الذي فقده في طفولته والبريد يهئ له الشعر الذي هو المفرد والهروب من الواقع.

الإغلاق: يهئ له طريق النجاة فكل هذا العُلُو في المباهاة من أجل الوصول إلى أقصى درجة من تضخم

الذات وانفرادها على حساب العالم.

لذلك ندرك "أنّ سلوك ما نُسمِّيه الأنا إنما هو في جميع مراحل الحياة سلوك سلبي في أساسه وأننا نعيش مدفوعين بقوى غير معروفة، ولا يمكن إخضاعها لسلطتنا"²⁶ وهذه الفكرة "تستحق أن نسميها (تحدّي)، ولكن بالمعنى الذي لازال يزداد غنى؛ تحدّي هو دورياً فشل توليفات كانت دائماً غير ناضجة واستفزاز لتفكير أعمق وبطريقة مختلفة"²⁷ فسلطة الأنا التي تحاول أن تقوم بعملية تنظيم العالم المعاش عبر تسارع القوى الداخلية حين تحاول أن تُعوّضَ بعض الأشكال التنظيمية النقدية؛ يقول عبد الله حمادي:

"والمطر الشتوي الأسود

وغابة من الظنون (...)

هو الوحل ممتد إلى الأعماق"²⁸.

من خلال هذه الأسطر الشعرية المكثفة نرى تعالي الشاعر ومباهاته بنفسه من أجل الوصول إلى أقصى درجات التمرد بالذات النرجسية على حساب العالم؛ حيث صور لنا الشاعر صورة المطر وهي في الحقيقة صورته المسكونة بهواجس الماضي السعيد، غير أن الشاعر اصطدم بالواقع فلجأ إلى تمني الشعر الذي يعتبر بيت الوجود والأحلام؛ "إن الكلمات واللغة ليست لِفَاقاً تُعبأُ بها الأشياء لكي يتبادلها أولئك الذين يكتبون أو يتحدثون، إنما في الكلمات واللغة تدخل الأشياء إلى الوجود للمرة الأولى وتوجد وتُكون، هذا هو المعنى الذي ينبغي أن نفهم مآثور اللغة وهي بيت الوجود"²⁹ فتاريخ الكتابة والتي ينادي الحبر على أنه المياه السوداء عندها ينفي تماماً عدم التخيل والكتابة فعبر الذات النرجسية يرى ذاته تاريخاً عبر العودة إلى الوحل فنجدته مكتوباً في قوله:

"وأيتكم في الأرض

علوا كبيرا (...)"³⁰

فهو يسيطر على الأرض التي يُخرُجُ منها القصائد عبر خطواته التي تَرجم وتلُعن الزمن الذي لا يعود؛ إنّ "الكلمات والأفكار في التعامل مع الأرض وما شابهها من مظاهر النرجسية واضحة في الحياة النفسية للعلو، وهي تُثبِتُ وتبرهن على وجود حب الذات الأولى"³¹، حينها وصل الشاعر من خلال نسق الذات النرجسي إلى درجة التعالي، الذي يحس ويظن نفسه أنه كلّ شيء في الوجود والحياة؛ فهذه الشخصية النرجسية المضطربة لها مجموعة من الأوصاف نذكر منها:

- "الاستغراق في الشؤون الذاتية بدرجة كبيرة جداً.

- هدوء مصطنع وتكيف اجتماعي ملائم وفعال يغطي تشويها عميقا في العلاقات الداخلية مع الآخرين.

- طموح زائد.

- تخيلات العظمة توجد جنباً إلى جنب مع الشعور بالنقص.

- اعتماد مفرط على الإعجاب الخارجي وهتاف الاستحسان.

- الشعور بالملل والضيق والفراغ.

- الرغبة المستمرة في البحث عن الألمعية والقوة والجمال من أجل الإشباع.

- الحيرة المزمّنة وعدم الرضا عن النفس³².

من هنا نصل إلى أنّ مفهوم الذات الأول هو "الظاهر: تضخم اعتبار الذات، أخيلة الثروة والقوة والجمال والذكاء، الإحساس بالاستحقاق، الخداع اللاإرادي والثاني المستتر: الحساسية المفرطة غير المكبوحه، مشاعر الضعف، السعي المتجدد وراء القوة والمجد"³³، من الواضح أن تضخم الذات الحمادية مضطربة وتحاول الخروج عبر الذات النرجسية المخفية وراء الخداع اللفظي المجازي.

3.4 الحداثة وراء القناع الشعري:

إنّ الحداثة الشعرية لعبد الله حمادي تقوم على مبدأ التأويل والتنبؤ، حداثة تحاول الاقتراب من جوهر العالم وجوهر الكون، حيث يقول:

"ممتد

وعرشه المعمور

في غيمة من عماء

يرزقني من حيث لا أعلم.

كنت الكلمة

وكان الغشاء..."³⁴.

هي ممارسة نقدية ثقافية يحضر في صلبها سؤال الذات والكتابة، كإثارة حيوية الأبعاد في الكينونة المتعددة التي تخضع لآلية الكشف، بما وراء القناع النسقي المضمّر، لذلك التأويل الحدائي الذي يعيد طرح أسس مساءلة الكون والوجود من أجل بناء حوار خصب مع مختلف أشكال الأثر المكتوب منه أو المنسي في اللاوعي الفردي والجمعي معاً، وأنّ الحداثة الشعرية في قصيدة "البرزخ والسكين" هي حداثة تتجه صوب التأويل، في الفكر المخفي للشاعر حيث يقول:

"أسافر وتسافرين

في آخر الصيحة لكل جعلنا

منسكا

لا ترهقني الأحوال"³⁵.

الحداثة عبر هذه الأسطر الشعرية لا تتعمد خلق الرموز والأقنعة والإشارات الدالة فحسب، بل تسعى دوماً إلى "إنتاج تأويلية نسقية مضمرة خاصة ينبي عليها الفضاء الشعري المهيمن، وهي حداثة تتخذ من التاريخ والتراث والزمان والمكان مرجعية تستند إليها أثناء فعل الغواية الشعرية، ومن ثم مباشرة الفضح والتجاوز والثورة والتمرد على الغائب بكل ظواهره، وأشكاله"³⁶ وهذا ما يؤكد عليه عبد الله حمادي فيقول:

"موعده الطريق، وعلامة للتوسط

بين الغواية والغاشية"³⁷.

إنّ البحث عن المغامرة والقلق والتجديد المستمر عبر طريق الحداثة، فرض عليه وضع موعداً يتم به الخروج عن المألوف. وهذا عبر مقولة الاختلاف وهدم القديم، وهذا تشكيل لغوي جديد يقوم على اللاعقلانية التي تحول اللغة إلى ما وراء الظاهر من الأشياء، فتخترق حجب الغاشية المخفية وراء نسق العلامة التي تقوم على "الحدس بوصفها تشغيلاً للحاسة السادسة التي يمتلكها الشاعر، والتي تمكنه من بلوغ الرؤيا أي تجاوز عتبة الواقع المرئي واختراق البعد اللامرئي، فيه عبر حياة الغواية المستورة خلف حياة، الرموز والدلالات والإشارات الإيحائية التي تؤول إلى توسيط العالم، وتعيد امتلاكه، وتحقق كينونة الإنسان باعتباره ظاهرة متعددة، وباعتباره كائناً قابلاً للكشف والهدم وإعادة البناء والتأويل"³⁸ فهذه مبادئ الحداثة التي تقف وراء تسارع الحياة المستمرة في نفق له دوامة التجديد، والرافضة لمنطق الثبات.

4.4 الهدم والتفكيك:

تهدف الحداثة إلى تجاوز القواعد الأساسية للدين، وقواعد الثوابت التي هي بمثابة الضوابط والحدود التي تحفظ شخصية الفرد والوجود الاجتماعي، وعلى أساس هذا المنطلق فإنّ عبد الله حمادي أراد المحاولة في ظل الإبداع ليُدعوا أنّ الحداثة هي الثورة الدافعة لتجاوز التأخر والجمود والارتقاء إلى الحرية والتحرر الديني فيقول:

"يدرك النور ولا يدرك
أحلاكما مر
أحلاكما سر"³⁹.

التصريح بالمضمهر من خلال نسق الدعوة إلى سر التغيير "أجل، كل شيء يحتاج إلى تغيير في مجتمعنا، نحن نعيش، في مجتمع يتوجب تغييره من ألفه إلى يائه"⁴⁰ وأنّ المسلمين "في معزل عن حركة التغيير والتطور، وبخاصة الفكرية: خاضعين، تابعين"⁴¹ وربما كانت الدعوة القائلة إنّ "هدم الأصل بالأصل ذاته) هي في الأساس استبدال الدين القديم بالدين الجديد، هذا الهدم إذن لا يعني الارتباط بماض غير الماضي العربي أو السقوط في التراث غير التراث العربي، وإنّما يعني تجاوزه بأدواته ذاتها، إنّ العروبة بتعبير آخر هي نفسها التي تضع العربي اليوم من أن يكون كعربي الأمس، فالماضي الذي يهدمه إنّما يعيد بنائه بالعروبة ذاتها"⁴² حيث يتجسد نسق الهدم من خلال إخفاء الوجه الذي يرى فيه الشاعر التحول إلى شكل جديد للعالم المتحرر من أصول الثابت الذي لا فائدة منه، فنسق الهدم هنا شديد الخصوصية ويركز على الوصول إلى أفضل تدمير ممكن للثابت، حيث يقول عبد الله حمادي في آخر القصيدة:

"وخاتمة السكين (...)

خيال... في خيال

سؤال في خيال

خيال في عماء (...)"⁴³.

الاستقلالية الفكرية في الواقع يجب أن تهدم العناصر الثانية في التراث بواسطة السكين، فيحاول عبد الله حمادي استغلال العناصر المتحولة والمتغيرة والمبدعة كوسيلة لتحطيم أسطورة (الأصل والمرجع) والتحرر من سلطة الجانب غير المرغوب فيه، عبر إخفاء أخطر الأنساق وهو هدم وتفكيك الماضي (خيال في عماء) وذلك بتكوين أفكار وقيم جديدة، تساعد وتدعوا إلى الإبداع والتجاوز كطريقة خاصة في فهم العلاقة بين الصراع الحاصل لرؤية المستقبل المشرق.

5. خاتمة:

في الختام يمكننا أن نحصر أبرز نتائج البحث فيما يلي:

- يهدف النقد الثقافي إلى فهم كل الأشكال المعقدة والمركبة، بالإضافة إلى تفكيك أو تحليل السياق الديني والاجتماعي والسياسي.
- يقوم النقد الثقافي على دراسة الأعمال الهامشية التي رفضها النقد الأدبي عبر قيمتها أو أهميتها بحكم أنها لا تخضع لشروط الذوق النقدي.
- يكون النسق المضمّر نقيضاً ومضاداً للعلني، فإن لم يكن هناك نسق مضمّر من تحت الجمالي عندها لا تدخل القصيدة في مجال النقد الثقافي.
- هدف النقد الثقافي الدخول في عمق النصوص بدل النظرة السطحية مما يساهم في إثرائها وكشفها.
- تجاوز الرؤية الفكرية لعبد الله حمادي للمفاهيم الدينية لإعادة ترتيب القيم الجديدة للحياة عبر تراكمات نفسية وتاريخية خطيرة، وكشفها بواسطة المأزق الوجودي.
- الذات النفسية لعبد الله حمادي لها وجهان: الأول الظاهر وفيه تضخيم للذات وتخيل الثروة والقوة والجمال والذكاء والإحساس بالأحقية في كل شيء والخداع اللاإرادي، والثاني المستتر وفيه الحساسية المفرطة وغير مكبوحه الأنا والمشاعر الضعيفة التي لم تحقق له أي شيء سوى الهروب إلى الشعر كبديل ومخرج من الأزمة النفسية.
- الحداثة عند الشاعر تقوم على فلسفة التنبؤ والتساؤل والقلق والتجديد المستمر عبر الخروج عن المألوف.
- الرغبة المخفية والمُلحّة في هدم التراث وتفكيكه على أنه عثرة في طريق الحداثة من أجل الحرية الفكرية والتغيير والنهوض بواقع الأمة.

6. قائمة المراجع:

- أدونيس، الصوفية والسريالية، دار الساق، ط3، (د ت).
- أدونيس، المحيط الأسود، دار الساق، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- أدونيس، الهوية الغير مكتملة، تر: حسن عودة، بديات للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2005م.
- بول ريكور، فلسفة الإرادة، الإنسان الخطأ، تر: عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003م.

- حفناوي بعلي، فضاءات جديدة للنقد الثقافي، راهن العلوم الإنسانية، المغرب، مجلة عالم التربية، ع:16، 2005م.
- حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، دار العربية للعلوم، ط1، لبنان، 2007م.
- سورة البقرة الآية 30.
- سيجموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط4، 1982م.
- صلاح قنسوة، تمارين في النقد الثقافي، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، (د ط)، القاهرة، مصر، 2007م.
- عبد الرقيب البحيري، الشخصية النرجسية (دراسة في ضوء التحليل النفسي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1987م.
- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004م.
- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، دار هومة، ط3، 2002م.
- عبد الله محمد الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان، 2005م.
- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، 2003م.
- عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج1.
- فيصل دراج، الحدائث المتقهقرة (طه حسين و أدونيس)، نادية للطباعة والتوزيع، رام الله، فلسطين، 2005م.
- كولن ولسون، اللأمنتي، دار الأدب للنشر، بيروت، لبنان، ط5، 2004م.
- محمد كعوان، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، 2003م.
- محمد محفوظ، شعرية الكتابة والجسد، دراسات حول الوعي الشعري والنقدي، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، لبنان، 2005م.
- مصطفى محمود، الوجود والعدم، دار العودة، بيروت، لبنان، 1986م.
- ناظم محمود بركات، التبادل اللامتكافئ بين الثقافتين العربية والغربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م.
- عادل مصطفى، فهم الفهم (مدخل إلى الهرمينوطيقا)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007م.

7. هوامش البحث:

- ¹ - عبد الله محمد الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان، 2005م، ص83.
- ² - المرجع نفسه، ص84.
- ³ - المرجع نفسه، ص85.
- ⁴ - محمد محفوظ، شعرية الكتابة والجسد، دراسات حول الوعي الشعري والنقدي، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، لبنان، 2005م، ص128.
- ⁵ - حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، دار العربية للعلوم، ط1، لبنان، 2007م، ص19.
- ⁶ - ناظم محمود بركات، التبادل اللامتكافئ بين الثقافتين العربية والغربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص157.
- ⁷ - حفناوي بعلي، فضاءات جديدة للنقد الثقافي، راهن العلوم الإنسانية، المغرب، مجلة عالم التربية، ع:16، 2005م، ص229.
- ⁸ - صلاح قنسوة، تمارين في النقد الثقافي، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، (د ط)، القاهرة، مصر، 2007م، ص11.
- ⁹ - عبد الله محمد الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص78.
- ¹⁰ - المرجع نفسه: ص79-80.

الأنساق الثقافية في قصيدة "البرزخ والسكين" لعبد الله حمادي

- 11- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004م، ص128.
- 12- المرجع نفسه: ص129.
- 13- المرجع نفسه: ص130.
- 14- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، دار هومة، ط3، 2002م، ص127.
- 15- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، 2003م، ص209.
- 16- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص129.
- 17- سورة البقرة الآية 30.
- 18- عمر بن كثير القرشي دمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص216.
- 19- مصطفى محمود، الوجود والعدم، دار العودة، بيروت، لبنان، 1986م، ص63.
- 20- أدونيس، الصوفية والسريرية، دار الساق، ط3، ص40.
- 21- كولن ولسون، اللامنتهي، دار الأدب للنشر، بيروت، لبنان، ط5، 2004م، ص28.
- 22- أدونيس، الهوية الغير مكتملة، تر: حسن عودة، بدايات للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2005م، ص07.
- 23- عبد الرقيب البحيري، الشخصية النرجسية (دراسة في ضوء التحليل النفسي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1987م، ص03.
- 24- المرجع نفسه: ص06.
- 25- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص129.
- 26- سيجموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط4، 1982م، ص40.
- 27- بول ريكور، فلسفة الإرادة، الإنسان الخطأ، تر: عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003م، ص11.
- 28- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص133.
- 29- عادل مصطفى، فهم الفهم (مدخل إلى الهرمينوطيقا)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص232.
- 30- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص134.
- 31- عبد الرقيب البحيري، الشخصية النرجسية (دراسة في ضوء التحليل النفسي)، ص05.
- 32- عبد الرقيب البحيري، الشخصية النرجسية (دراسة في ضوء التحليل النفسي)، ص(36،37).
- 33- المرجع نفسه: ص49.
- 34- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص127.
- 35- المرجع نفسه، ص129.
- 36- محمد كعوان، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، 2003م، ص118.
- 37- المرجع نفسه، ص137.
- 38- ينظر: محمد كعوان، شعرية الرؤيا وأفقية التأويل، ص119.
- 39- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص138.
- 40- أدونيس، الهوية الغير مكتملة، ص19.
- 41- أدونيس، المحيط الأسود، دار الساق، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص16.
- 42- فيصل دراج، الحدائة المتقهقرة (طه حسين و أدونيس)، نادبة للطباعة والتوزيع، رام الله، فلسطين، 2005م، ص173.
- 43- عبد الله حمادي، البرزخ والسكين، ص141.